رواية الناصر

[تأليف الأستاذ عزيز أباظه باشا]

للأستاذ حبيب الزحلاوي

ما أكثر النواحي الجذابة في هذه الرواية ، بل ما أكثر ما اضطرتنا مشاهدها إلى الالتفات إلى الدقائق التي يخالها البعض من النوافل ، وما هي في الحقيقة إلا في الصميم .

تجمع رواية الناصر بين بدائع الأدب الرفيع ، وروائع الفن الجميل ، وجلال الملك ولكل من هذه الخصائص روعة وجلال يهزان الشاعر ، ويطمئنان الروح ، ويثيران النخوة ، وقد فعلت فعلها في نفس كل من حضر تمثيل هذه الرواية على مسرح الأوبرا .

مؤلف هذه الرواية شاعر مطبوع على الشعر ، وفنان موهوب يساير سجيته بدون عنت ، ويماشي فنه بفطنة وبساطة ، لا يجنح جنوح المتفيهقين في التنقيب على الكلمات المهجورة يحشو بها شعره ، ولا يحذو حذو المتمالين المتمالين من أمثال الشعراء الرمزيين ، بل جمع عناصر إحساسه ، وحشد شوارد خياله في بوتقة شخصيته الخلاقة ، وجعل مشاعره تتأثر لتتفاعل فتتحول إلى حياة عاطفية وذهنية . وقد حتم على نفسه ، لأمر خاص ، أن يستمد موضوعه من وقائع التاريخ العربي في الأندلس ، الحافل بعظائم الأمور ، فاستمده ، في هذه المرة ، من ناحية متواضعة من حياة الناصر في قرطبة .

طبع الأستاذ الفنان عزيز أباظه روايته هذه بطابع خاص ، فخرجت تحمل سمات الوضوح ، والملاحظة ، والإنسانية ، والعطف والحب أيضاً ، كما خرجت أيضاً تحمل سمة تقرير الفكرة تقريراً مباشراً ، مصورة صوراً بديعة للجمال الطبيعي ، والوقائع المادية ، وخلجات النفس ، ولهثات الصدور ، ورعشات الأفئدة ، وبسمات الفرح مرسومة رسماً أميناً يستمد حسنه المنسجم من النور واللون ، والجرس والإيقاع ، ومن براعة اختيار الألفاظ المعبرة عن المعاني ،

لست فيلسوفا ولا مشتغلا بالفلسفة . وأدركت أن نظرة كل إنسان إلى الحياة لا تسمى فلسفة ، ولا يسمى صاحبها فيلسوفاً . وإلا لكان زهير بن أبي سلمى الشاعر الحكيم فيلسوفاً بسبب هذه الحفنة من النظرات التي وضعها في معلقته . أو كان أبو العلاء المعري فيلسوفاً بماله من وجهة نظر خاصة في الحياة

وقد قسم المؤلف الكلام على الفلسفة متمشياً مع تاريخ العصور ، فهو يبدأ من اليونان ثم الرومان ثم المسلمين حتى يصل إلى عصر النهضة الأوربية فالعصر الحديث . وهو تقسيم كان أكثر منطقاً لو أن المؤلف يؤرخ للفلسفة . ولكنه يشرح لنا معناها ؛ فما كان أغناه عن هذا التقسيم الزمني الذي لا تراعى فيه معاني الفلسفة — قربا وبعداً واختلافا واتفاقا — بقدر ما راعى فيه تتابع العصور . وقد اضطره المنطق الصحيح للأشياء أن يتحدث عن التوفيق بين الفلسفة والدين عند المسلمين وهو يتحدث عن فلسفة الرومان — ص ٢٦ ؛ لأن المقام هنا ليس مقام زمان ولكنه مقام وحدة في الميزان .

ويقول المؤلف ص ٣١ إن صاعداً الأندلسي يذهب إلى أن الفلسفة الاسلامية عربية . وقد حيرني هذا الكلام فأن المؤلف ينقل في الصفحة نفسها عن صاعد الأندلسي قوله : (وأما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله — أي العرب — منه شيئاً ولا هيأ طباعهم للعناية به . ولا أعلم أحداً من صميم العرب شهر به إلا أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي) . فكيف يتفق استنباط الدكتور مع قول صاعد نفسه ؟ ودع عنك أن الرواية الصحيحة لقول صاعد هي . فلم يمنحهم الله عز وجل شيئاً منه — إلا أبا يوسف) بنصب أب بعد الاستثناء .. ه كتاب طبقات الأمم لصاعد ص ٧٠ طبعة السعادة » .

ويبقى كتاب معاني الفلسفة بعد هذا معرضاً دقيقاً لناحية الفلسفة ومذاهبها المختلفة من أقدم عصورها إلى اليوم ، وهو معرض قدمه الدكتور الأهواني على مائدة ليس فيها ذلك الدسم الذي تتهوع له النفس ، ولكن فيها تلك البلغة التي يتزود بها العجلان .

محمد عبد الغني حسن

وقد صب ذلك كله فى قالب حلو كل الحلاوة ، مسبوك فى بحور عديدة من العروض متناسقة متناسبة شجية الإيقاع والنغمات .

* * *

لا يسأل المؤلف الروائى فيما كتب فأخطأ ، ولا يناقش فى أوضاع أرادها لأبطال روايته ، لأن واجب الناقد هو التعرف على مبلغ الجودة فيما ألف وصنف — وليس للجودة فى طبيعة الشعر سوى الذروة السامقة مقاماً — والشاعر أباظه باشا ، رسم لنا فى روايته هذه بعض مشاهد من أخريات حياة « الناصر » ولمحة من حياة ولديه « الحكم » ولى العهد ، وعبدالله ، أما الحكم فقد كان مفتوناً بحب الجارية « شفق » وهى فتاة أسبانية أسيرة تبناها الناصر وصغى قلبها إلى ولى عهده ، ولكنها متحيرة حيرة الوفاء ، وحيرة الإنصات إلى الهاتف الداعى إلى واجب الوطن والأهل . وكذلك رسم لنا صورة « لعبدالله » المأثر بعرش أبيه ، وأخرى للسيدة « الزهراء » زوجة الناصر وقد عرفت بالجمال الفاتن والرأى السديد ، وصورة ثالثة بالغة غاية الأمانة والصدق لشخص الجاسوسة « منى » وقد تركزت إرادتها فى العمل على دك سلطان العرب فى الأندلس ، واجتثاث حكمهم فيها ، وإعادة أهلها إلى الاستظلال بعرشهم المسلوب .

وهكذا دارت الرواية حول هؤلاء الأبطال الذين يضمهم القصر ، ويجنبهم العرش ، وتتعارض بينهم الأغراض والمآرب ، تارة فى حوار متصل أو متقطع بين شخصين اثنين أو أكثر من شخصين ، وتارة أخرى بنفس طويل صاخب أو رقيق همّاس ، أو بروح رضية عقلية أو وجدانية .

لا شك عندى فى أن المؤلف قد أجاد فى جعل شخصيته الخاصة تعيش فى المواقف التى تخيلها ، وكذلك أجاد مرة أخرى فى أنه سما فى شعره بجعل الشخصيات البارزة فى الرواية تقف الموقف المتخيل فى ذهنه هو . وإنى أقتبس بعض أبيات من مواقف « للحكم » من حبيبته « شفق » ومن موقف لهذه الجاسوسة « منى » ، وشذرات مما جاء على لسان الناصر للتدليل على ما ذهبت إليه فى وصف شعر الشاعر .

الحكم :

يا منية النفس قد أدركته أملا ... رفّت له النفس أعواماً وأعواما

أذكيت فى القلب وقداً قد سموت به ... فكان حباً وتقديساً وإعظاما

لو لم تكونى فدتك النفس غانمة ... لكنت عتباً وأشواقاً وأحلاما

وكنت تسبيحة للروح هامسة ... زكت قصيداً وتوقيعاً وأنغاما

شفق :

وأنت إن لم تكن قوام مملكة ... لكنت فوق قلوب الغيد قواما

ترنو فتلهبها وجداً ، وتسعرها ... وقداً ، فتهتز آمالا وآلاما

فلا اللواهث من دقاتها هدأت ... ولا الذى نج من أجراحها التاما

وكنت أرفع ما ازدان الوجود به ... وحياً من الخلق الأسمى وإلهاما

ويقول فى موقف آخر :

بعض الحنان يا شفق ... حُطم قلبى يا شفق

أكان ذنباً يوم رفّ ... فاصطفاك فمشق ؟

وإنه قبلك ما ... ذاق الهوى ولا خفق ؟

وإنه ضمك فى ... حياته ثم انصفق ؟

لئن جنى فإنه ... عذب فوق ما استحق ؟

لو استطاع ليكى ... ولو أطاق لنطق

ويحيى له إذا اشتكى ... لألفه فلم يرق

وإن هفا لنظرة ... أو بسمة فلم يذق

يصبح لم يغف فإن ... دجى له الليل أرق

حدثنى أنك أشـ ... ـفقت عليه ، هل صدق ؟

أتسمعين يا شفق ... أرحمين يا شفق ؟

شفق : أخى!

الحكم :

أخوك شفه ... وقد جفاك فاحترق

يا نفحة النسمة تشتف جنى الروض العبق

يا طلعة الفجر إذا ... الفجر من السحب انبثق

يا قبلة الطل إذا ... الطل على الزهر ائتلق

يا غنوة الليل شدا ... ها الليل وهو مغتبق

يا نظرة المتب إذا ... المتب اسكان ورفق

يا رجفة الشوق إذا ... الثغر على الثغر انطبق

يا همسة الرضا الكريم ... واللقاء يسترق

لم ينطق اللفظ بها ... فالتمست عند الحدق

وددت لو يتسع المجال فأقتبس من شعر الشاعر ما ينهض

الدليل الذى لا يدحض على أنه استطاع أن يجعل أبطال الرواية يعيشون فى المواقف التى تخيلها هو ، ولكن ذلك متعسر بسبب الحوار ، والحوار جماله فى سماعه ، وسحره فى تراشق المتجاورين بالكلام الممزوج بالانفعالات النفسية التى تتماوج مع الصوت ، وترتسم على الوجه ، وتبدو فى الحركة والاشارة . وبرغم ذلك أجدنى ملزماً بنقل قطعة من حوار غير متقطع قام بين الجاسوسة الأسبانية وبين الجارية الأسبانية التى تبناها الناصر وأحبها ولى عهده ، وإنى أدعو إلى الاستمتاع ببديع الحوار فى هذه الرواية كل محب لالتقاط المنثور من روائع الحيرة والحب والوفاء بين شفتى « شفق » أمينة رزق الممثلة البارعة ، والاستهداف لشظايا الضغينة والحقد والانتقام تقذفها من جوارحها « منى » فردوس حسن ، الممثلة الممتازة فى البراعة .

منى :

أمة أنت فى الذؤابة منها … ذاقت الذل بعد عز رفيع
فى بلاد ديست وشعب تردى … فى قرار من الهوان وضيع
هتك الغاصبون من كل علج … مسلم .. ستر مجدها الممنوع
أو سمونا مذلة يا ابنة العم … فعشنا نلتذ طعم الخضوع
كالأرقاء والعبيد يرون البغى … حقاً للسيد المتبوع

يا ابنة العم .

شفق :

فاسمعى لا تهيجى … حزة النفس بعد طول هجوعى
أنا بنت الخليفة السمح أفديـ … ـه بنفسى وعترتى وجموعى
الوفاء الكريم يعمر قلبى … والوداد المقيم ملء ضلوعى

منى :

أوفاء لمن رماك فأصمى … ك فاجلاك عن حماك الربيع

لم يغفل المؤلف الشاعر عن تصوير جلال الملك وجلالة الملوك ، ولم يتورط فى رسم سجايا غير سجاياهم وخلائق ليست خلائقهم ، بل أطلق ريشة رسام « سيانى » تستوى عنده الفوضى والنظام ولكنه ينحرف عن جادة الحق والصدق فقال مرة بلسان « شفق » العاشقة الحيرى « غرام الملوك وشيك الزوال قصير المدى » فيردها عاشقها إلى الحق فيقول لها .

ظلمت الملوك ولم تنصفى … فإن الملوك ملوك الهوى
عرفنا الهوى مهجاً تلتقى … عطاشاً وأفئدة تكتوى

ويقول مرة بلسان الناصر :

قد خبرنا فلم نجد لصلاح … الأمر إلا النهوض بالأمر فردا

ويقول أيضاً :

بنينا على هام الجزيرة دولة … تأشب فى أعطافها العلم والمجد
فلما استقرت واستطالت ترادفت … عليها من الأهل الخيانة والحقد

ويقول أيضاً :

أيرضى المعز الأمر يخرج من يدى … ليخلفنا الأفرنج فى ملكنا قسرا
إذا ما تنازعنا شعوباً وقادة … ومنا رسول الله ذقنا الردى مرا
وإن لم نجاهد جبهة عربية … موحدة كنا لأعدائنا جزرا

ويقول :

ويحسبنا الناس أوفى الدنى … نعيما وأسعد قطانها
لقد جهلوا إن أشقى الرؤو … س رؤوس تنوء بتيجانها

وأخيراً يقول :

إلى ذروة المجد سر بالجيوش … محوطاً بمأثور إيمانها
حياة الملوك ومجد الملوك … لأوطانها وبأوطانها

هل استوفى المؤلف غايته من وضع هذه الرواية على النحو الذى وضعها فيه ، أو أنه أراد شيئاً آخر فخانه القلم ولم يسعفه التوفيق فجنحت سفينته عن غير قصد إلى الشاطىء الآخر ؟

هذا سؤال لا أطلب جوابه ، ولكنى أبيح لنفسى القول ، أن رواية الناصر فى وضعها الحالى ، إنما هى رواية أندلسية ، وأن الجانب العربى فيها ليس بالجانب المفضل بدليل أن عناصر القوة تجمعت فى الشخصيات الأندلسية ، وأن عنصر الضعف تمثل فى الخليفة العربى الشيخ الفانى ، وفى ولى عهده الشاب المتيم المفتون ، وفى ولده الثانى الخائن المؤتمر بعرش والده ، وفى كبير الوزراء والخصى الضالعين معه ، ولم يسلم من الضعف من الشخصيات العربية سوى « الزهراء » زوج الناصر ، هذا ما شجعنى على القول أن طابع الرواية أندلسى موشى بالذهب العربى ، وهذا ما يجعلنى أزعم أن الطابع الأندلسى هو الذى أزكى حدس النظارة فجعلهم يستشعرون بفطرتهم أن الرواية ليست روايتهم ، ولعل مرد ذلك إلى الشعور العربى السائد بيننا اليوم .

ليس يعني هذا أن الرواية لم تلق نجاحاً عظيما ، بل أعني أن عنصر النقـد عند المؤلف البارع لم يكن حاد اليقظة ، ولكني أقول بعقيدة وصدق أن الأستاذ الشاعر الكبير عزيز باشا أباظه يملك أكثر الخصائص الأدبية والفنية التي تؤهـله لأن يكون أول مؤلف للمسرح بل المؤلف الموهوب الوحيد المعروف حتى الآن لمسرحنا العربي المرتجى .

* * *

الكلام في فن الأستاذ زكي طليمات مخرج الرواية ، إنما هو تحصيل حاصـل ، وتحصيل الحاصل هذا معناه التعريف بما هو معروف عن هـذا الفنان المتتبع الدؤوب الذي لم تنقطع صلته بالمسرح قط ، والذي لم يغفل عن التطورات والمستحدثات وعن كل ما يمت إلى فن التمثيل بسبب . ولكن يطيب لي أن أضيف تعريفاً جديداً ، وهو أن للمؤلف المسرحي يداً مغنطيسية تجذب الأستاذ طليمات تارة إلى فوق ، وعندها تتبدى مواهبه ، وتشرق معلوماته المدخرة ، وتتفتق ابتكاراته الذاتية ؛ وتارة أخرى تجذبه يد المؤلف المسفّ إلى تحت ، وفي الحالتين يكون المسكين أسير الانجذاب .

لقد كانت يد الشاعر عزيز أباظه باشا قوية في جذبها إلى فوق ، بل كانت روحه الشاعرية هي التي تغلغلت في مسارب مشاعر الأستاذ طليمات ، وقد انتفض كالنسر ، وتجرد للاخراج ، وأخذ بهدوء يكمل عمل المؤلف ، أولا ، بإعطائنا صورة مجسمة للرواية ، ثانياً ، بإشراك خياله الناعم ما أشركه الشاعر في حسناء ، ثالثاً ، في إدغام الخيال بالحس ليصيرا حياة واقعية عملية تتجسد في أقوال الممثلين وفي حركاتهم وتنقلاتهم وإشاراتهم ، لترتفع بعدها إلى عرش الذهن المفكر

لقد ملأ المخرج بصرنا وسمعنا بالأنوار والمناظر ، بالتوجيه والالتفات ، بالإشارة والإيماءة ، بالسرعة والبطء ، بالكثير الكثير من الدقائق الفنية التي يعيها ويدركها ، وقد لا يعيها ويدركها سوى الإنسان المثقف .

وليس أدل على ذلك من مواقف الممثلة أمينة رزق ، وقد كانت ندّابة نواحة ، غاضت البسمات في صدرها ، وشُلت أوتار وجهها ، وانساحت دموعها فياضة ، فقد أعادها الأستاذ طليمات إلى تاعستها ، وخلقها خلقاً جديداً ، فاسترد ثغرها ابتسامته الحلوة ، وطفت على وجهها صور نفسها ، وصارت دموعها تقطر لؤلؤاً على خدين فيهما إشراقة الفرح بالحياة .

أما فردوس حسن فقد انطلقت على سجيتها في تمثيل دورها ، ونضت ثوب الصناعة ، فبدت كما براها باريها على اللدد والعنف والانتقام .

لقد تجلت عظمة هذه الممثلة في عنفها وقسوتها ، في نظراتها الحادة المشتعلة ، في نبرات صوتها الجافية ، في بصمات قدميها تطأ المسرح فيئن المسرح تحت قدميها ، في كظمها ما غاظها من مواطنتها وقد تنكرت لوطنها وقومها ، في استثارة نخوتها ، في التوسل إليها والاستنجاد بها ، في طعنتها النجلاء وقد أغمدت نصل خنجرها حتى قبضته ، في الأنة وقد شفت غليل صدرها بالدم والقتل ! لقد سجلت فردوس حسن أعظم موقف في تاريخ حياتها الفنية لأنه دور يوائم ما انفطرت عليه نفسها .

وددت لو أقف حيال بقية الممثلين والممثلات ، ولكني ، لأمر ما .. أتجاوز عن هذا الموقف لأتقدم بتهنئة صادقة للمخرج والممثلات والممثلين ، الذين تساندوا وتكاتفوا فبلغوا المكانة التي دعاهم مؤلف الرواية إلى الاستواء عليها بجانب عرشه الفني .

حبيب الزحلاوي

يصدر بعون الله
عدد « الرسـالة »
الهجري الممتـاز
في اليوم الخامس من شهر يناير سنة ١٩٤٨
مدبجاً كعادته بأقلام
أعلام البيان في العالم العربي